

نظرية النقد الإسلامي بين الحتمية الحضارية والتأسيس للبناء

- دراسة في الواقع والمأمول -

د. حورية بكوش

جامعة أدرار

المخلص :

ظَلَّت علاقة الفن بالمعتقد علاقة غير واضحة يرفضها البعض باعتبار الفن جمال لا غير ويراها البعض الآخر علاقة شرعية باعتبار الفن هو عصارة مافي داخلنا من رؤى وأفكار ومعتقدات . حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على علاقة الفن بالإسلام كعقيدة . كما تطرقت إلى نظرية النقد الإسلامي وصفا ونقدا لتخلص في الأخير إلى أَنَّ وجود نقد إسلامي لا يعني التقييد في لذة النص ومتعته وجماله كما لا يعني تلك الايديولوجيا الفاضحة .

المنهج الإسلامي في النقد ليس بمعزل عن متغيرات العالم والأدب العالمي الإنساني لكنه منهج يقظ ينتقي ما يوائم خصوصيات تصوراتنا الدينية
الكلمات المفتاحية : النقد الإسلامي، الحضارة، الهوية، الإنتماء، العقيدة.

Abstract:

The relationship between art and belief has always been ambiguous. A reality that some refute because they consider art only as aesthetic. While others think that it is a legal relationship to the extent that art is the quintessence of what is buried in us, visions and beliefs. This study attempts to highlight the relationship between art and Islam as a belief through the theory of Islamic criticism. We will try to demonstrate that Islamic criticism does not aim at marginalizing the beauty and pleasure of the text.

The Islamic approach in criticism is not isolated from global changes and world literature but constitutes a modern approach that follows our religious visions.

Keywords: Islamic criticism, civilization, identity, belonging, belief.

مقدمة :

حري بنا قبل الخوض في قضية علاقة المنهج النقدي بالانتماء الحضاري ، ان نعرض على بعض المصطلحات التي تصنع هذا المشهد الذي أصبح بحكم اختلاف الرؤى وتباين المواقف من مدى وشائجية النقد والانتماء الحضاري أصبح معتركا نقديا مستشرى ، يضاف إلى زخم المعارك الأدبية والنقدية التي تحفل بها ذاكرة الفن عموما .

المنهج : حسب ما جاء في لسان العرب لابن منظور من مادة نهج ¹

ونهج طريقٌ ونهَجٌ: بَيَّنَّ واضح سبيلٌ ومنهَجٌ كنهجٍ ومنهَجُ الطريق وَضَحُهُ والمنهاج كالمناهج وفي القرآن الكريم : لَكَلَّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا²

فما جاء في لسان العرب حول المنهج يتفق حول معنى الوضوح والإبانة .

النقد : تجمع كل التقريعات الموجودة في لسان العرب المادة نقد على :

التمييز -إخراج الزيف - الضرب - اختلاس النظر - اللدغ - ونقد الناس عابهم ³

وهي افعال حركية دينامية تتجه نحو الآخر في حركة تغيير وتمحيص فلا تخلو الشروح القاموسية للفظ من فعاليات المصطلح وأدائه بل تاثيراته .

وتشعبت تعاريف النقد حتى يعجز الدارس عن حصرها ، وسأكتفي ببعض التعاريف المنتقاة حسب مقتضيات البحث .

«..النقد تحول فكري من مجال الخلق الفني إلى محاولة إحكامه بأدوات فنية تقضي إلى السيطرة على الظاهرة الإبداعية بواسطة العقل ، فالنقد معرفة ، وهو معرفة من طبيعة خاصة ، إذا نظرت إليه من زاوية الفن قلت إنه علم الفن القولي ،

وإذا نظرت إليه من زاوية اللغة قلت إنه علم القول الفني ...ولا يضير في ذلك شيء أنه علم للأدب .له مقاييسه الخاصة وله مناهجه التي يتوسل بها أصحابه كما له منظومته النوعية من المفاهيم والمصطلحات ..» ⁴

في هذه الإضاءة التي جاد بها الدكتور عبد السلام المسدي محاولة جادة للإمساك ببعض النقد من الوسط والإقرار بعلميته ، مع فنيته . وأنه جهاز قائم بذاته له مناهجه وطرائقه فضلا عن مصطلحاته .

أما صلاح فضل فيرى أن النقد هو « .. التذوق الجمالي للأدب والتواصل الشخصي الحميم مع الإبداع اللغوي الفني ..والاستجابة الكلية لما تنثيره فينا النصوص من حس وشعور ..وما

تقدمه من فكر عاطفي ..وما تنتجه من متعة رائعة وتواصل حلو ومطارحة بهيجة ..بحيث يصبح هذا النقد عشق الفن الموصول ولذته الدائمة ..»⁵

هذا التعريف يتوقف إلى درجة كبيرة على خواص اللغات الإبداعية وفاعلية عناصرها الموروثة ودرجة تداخلها مع اللغات السمعية والبصرية .

فالتذوق والتواصل الشخصي والحس والشعور ، كلها كيانات مستقلة غير قابلة للتعميم عصية على الفهم التام مما يجعل النقد رهين اللغة والشخصية والمذاق المحلي ..

ويجعله إبداعاً بل لغة تستقرى لغة ..

بيد أن صلاح فضل يفتح عيون الباحثين على تمفصل واضح بين النقد ونظرية النقد ؛

فهذه الأخيرة أمر آخر ..

«إنها [أي النظريات] الفروض الكبرى التي يقدمها الفكر عن ماهية الأدب وعلاقته بالواقع وطبيعة المتخيل وكيفية تشكيله أي أنها تتضمن نظرية الأدب ذاته من ناحية ومناهج تناوله وتحليله من ناحية أخرى .. »⁶

فنظرية النقد - إذن- هي النقد ممنهجاً ومتسلحاً بفتوحات العلوم التي تصب بفروعها في الأدب.

أما الدكتور عبد المالك مرتاض فيرى أن النقد بأبسط نظرة ، هو تقديم تعليق على عمل أدبي ولكن بحساسية مرفهة تسعى إلى إبراز الأسس الجمالية ومخبوءات النصوص لكل سالك ، ليصل إلى الحكم على الأدب بأنه ينتمي إلى أشكال التبليغ الاسمي ، في حين ينتمي النقد إلى الإيديولوجيات ، والثقافات والاتجاهات الفكرية والنظريات المعرفية. فالكتابة أدب قوامه الخيال والنقد كتابة قوامها المعرفة⁷

لا يمكن الزعم أن المصطلح قابل للقبض أو الجزم لكننا نكتفي بالقول بأنه الوسيلة المثلى لفهم الأثر والبحث في دلالاته ومضامينه .

1- علاقة الفن عموماً بالمعتقد :

ولكننا ما نفقأ نغادر عتبات المصطلح حتى نواجه جدلاً أعنى تبدأ خيوطه من جدلية غائبة الأدب .

فلا يزال الأدب منذ اكتحلت عين الدهر به رهين الأسئلة الخالدة :

ماذا نكتب ؟ ولمن نكتب ؟ وماذا ينبغي أن نكتب ؟ وماذا سيتحقق بالسواد الملقى في البياض؟؟

وانبثق عن هذه الأسئلة تياران عظيمان كل تيار تنبأ أجوبة معينة واعتقدها ..
 فكانت المدارس والمذاهب : (الفن للفن) و(الفن للحياة) كصليبين ولدا بقية التشقيقات ..
 مما جعل النقد تبعا لذلك يعرف اتجاهات تتصدى للأثر الأدبي منشقة عن صلب من
 الصليبين المذكورين
 فالأثر الأدبي اختصارا هو صنعة فنية وتجربة حياتية ذاتية كانت ، أو من خصوصيات
 الآخر دون أن تلغي دور الخيال في اصطلياد الطرائد التي أفلتها الواقع فاستأثر بها الخيال .
 والأدب يحسن صوغ هذه التجارب وتقديمها بشكل مؤثر .
 ذلك أن النص ينماز ببنيته ، لا سيما إذا كان شعريا وألمع الجاحظ إلى ذلك حين قال في
 سفره الحيوان :

«المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني .. وإنما
 الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك
 ... »⁸

ذلك أن ما يمنح النص سمة الأدبية صياغته وكما يقول الدكتور عبد السلام المسدي :
 خصوصية الصياغة تظل شرطا واجبا لتحول التركيب اللغوي إلى نسيج أدبي⁹
 فالإقرار بل التسليم بوجود بنية نصية خاصة جعلت أصواتا كثيرة ترتفع داعية إلى استقلال
 الحكم النقدي عن الارتباط بأي معيار آخر غير فني ، سواء كان هذا المعيار أخلاقيا،
 سياسيا أو اجتماعيا وتمخص عن هذا التصور ظهور اتجاه يدعو إلى الفنية الخالصة أو
 الفن للفن، منزها عن أي غاية نفعية بل هي نظريات قامت تشيد بالجمال في الفن وتقول
 بتخليصه من النفعية أو الغائية، وعزله عن وظيفته الاجتماعية بل الإنسانية ، لتجعل
 الأنظار كلها محضنة تتجه إلى التشكيل اللفظي وحده وهي نظريات أوغلت في فصل الشكل
 عن المضمون .

إذن هل يمكن بمكان الحديث عن فن لا يتلون بمعتقد ؟ونقد لا يحتكم إلى رؤى عقدية ؟
 بل هل نستطيع التحرر من مخزوننا العقدي وموروثاتنا الإيديولوجية ؟
 الواقع أن المؤلفات الأدبية ليست أشكالا منغلقة على ذاتها، وإنما من داخلها تكمن علاقات
 معقدة بين الأدبي وغير الأدبي فالنص لا يكتب من فراغ ..إنه حصيلة مراثيات المجتمع
 وإملاءات الهوية¹⁰

فالأدب باعتباره بنية لغوية جمالية لا ينقص من أدبيته كونه ملتقى النوازع النفسية والثقافية للأمة مبصوما برؤيتها الحضارية والجمالية للعالم والوجود مشحونا بخصوصية صلاتها الوجدانية بالأشياء¹¹

فوجود فاعليات ونظريات أدبية وجمالية ليس معناه استحوادها على كل طاقات النص ، بل إنها تتفاعل مع قنوات معرفية أخرى توجهها زاوية نظر إيديولوجيا مذهبية عقدية في كل الأحوال .

وعليه فإن النص الذي تعتمل فيه كل هذه الطاقات والذي لا يكتب من فراغ بل إنه منتظم برؤى الحضارة ومشحون بإفرازات الوجدان لا يجب أن يواجه إلا بنقد يحتفي بهذه التركيبية . وعبثا يدعي بعض ممارسي العملية النقدية انعدام سلطان الإيديولوجية فيما يقدمون بدعوى جدار الجمالية الفاصل والحياد والموضوعية ..

هذا ادعاء باطل يغمط واقعا، إن لم يكن بيتنا فهو موجود ، إذ لا يمكن فصل الأدب والنقد عن التصورات العقدية والرؤى الإيديولوجية .

ونحن نتناول قضية صلة العقيدة بالأدب نواجه مصطلحات تتداخل مع العقيدة وهي الإيديولوجية والدين ولا مجال للتوسع هنا إلا بقدر ما يدفع الغموض أو الخلط ..

فالعقيدة هي كل ما يعتقده الفرد سواء كان سماويا أو بشريا من صنع العقل الإنساني والدين هو تصور شامل عن الكون والحياة والإنسان فينعكس على نشاطات الإنسان كلها على سلوكه وثقافته ويلونها بلون خاص .

وقد يكون هذا الانعكاس بارزا مباشرا وقد يكون خفيا ، والدين في الأخير هو الضمير الجمعي للأمة والجماعة¹²

فالعقيدة كما سبق هي ما نحمله من معتقدات بغض النظر عن مصدرها . والدين كما أسلفنا هو العقيدة السماوية .في حين يُرْوَج لمصطلح الإيديولوجية بشكل أكبر وهي - أي الأيديولوجيا - مجموعة الأفكار ووجهات النظر التي تكونها الجماعة البشرية عن ذاتها وموقفها الاستراتيجي من الآخرين وتستمدّها من خبرتها العريقة في التاريخ والموروث الحضاري مما يشكل رؤيتنا للعالم¹³

فالإيديولوجية معتقد بشري ...

والقول فيما سبق يدفعنا إلى الجزم بأن في الإنسان ميلا غريزيا لتبني معتقد ..بل إن الإلحاد في حد ذاته معتقد أوليس إيديولوجيا تبني على تأليه الطبيعة ؟

إذن وجود فن في محض عقائدي إيديولوجي ليس سبة للأدب أو إطارا لأدبيته .
فالتاريخ يشهد على ولادة الأدب في أحضان العقيدة وعدّ الكاهن أول أديب وكل حضارة انطلقت من معتقد

معين : فالفرعونية ألّهت الفرد وفتشت له عن الخلو، واليهودية قامت على معتقد شعب الله المختار ، والإسلام قام على التمايز الصحيح بين الخالق والمخلوق والنظر إلى الخلود كعالم مستقل .

ووجود عقيدة كما أسلفنا ليس معناه التفریط في جمال النص بل بالعكس هما عالمان متجانسان » ..كل منهما يهدف إلى تجميل الحياة وإعطائها قيمة وهدفية وكل منهما يهدف إلى إسعاد الإنسان وجعله قيمة كبرى في هذه الحياة وهو يكون قيمة كبرى حين يتجاوب مع هذين العالمين فمن الدين يستلم القيم وفي الأدب يجسد هذه القيم ويسير على هداها..¹⁴
إذن لا يمكن أن نلغي علاقة الفن بأي حال من الأحوال بالروح والعقيدة والمحيط ، فالالتزام مطلب حضاري لأنه يعني تواصل الإنسان مع العصر وعيشه فيه ، والفن حسب روم لاندو صاحب كتاب الإسلام والعرب رمز حقيقي لموقف صاحبه من الله ومن العالم الذي يحيا فيه¹⁵

وعبر التاريخ نشأ الأدب في أحضان العقيدة بدءا بحلقته الأولى اليونانية حيث تعدّ الأغاني المقدسة بواكير الفن القولي فالمسرحية التي عدّت منها التراجيديات والكوميديا أصداء لطقوس الأعياد الدينية منذ عصور سحيقة .
ومرورا بالرومانية فالحال ذاتها ..

ناهيك عن الآداب الأوروبية في عصورها الوسيطة كلها آداب صُبغت بالمفاهيم والتصورات الدينية في مراحلها المختلفة وظل الأدب الأوروبي حتى أواخر عصر النهضة يجيب عن التساؤلات الكبرى ويرسم تصوره للوجود غرfa من معين الدين .
حتى كان الانفصال عن الدين دون أن يكون انفصالا عن المعتقد أيا كان نسيجه والمتتبع للمذاهب الأدبية الغربية لا يعدم وجود معتقدات خاصة أو إيديولوجيات صنعت المذهب وأسست له بنيانه .

قد يطول الحديث عن علاقة المعتقد بالفن ومن ثمة بالنقد كفعالية امتلاك لهذا الفن ..

لكن المؤكد أن تفعيل العقيدة في الأدب دعوى غير منطقية كدعوى تعطيلها لأنه وبشكل آلي تدخل معتقداتنا وأفكارنا حرم نتائجنا ونقدنا وبنثا وتلقينا والإقرار بالضد سراب يحسبه الظمان ماء .

2 - لماذا نظرية أدب ونقد بديلين للنظريات الحداثية ؟

انتقل النقد من مرحلته السياقية التي وسمت بل عيرت بالمعيارية وبالاهتمام بما هو خارج عن مجال النص كالتاريخ والبيئة وصاحب النص، إلى مرحلة ما يطلق عليه بالنقد الحديث

سادت الحركة أنجلو أمريكية خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وقامت هذه الحركة- التي أولت عناية خاصة بالنسق- على أسس وخصائص منهجية عامة تلخص في :

- 1- الاهتمام بالتحليل العلمي للنص ونبذ المعيارية ما أمكن .
 - 2- نبذ الالتزام ورفض استخدام الأدب وسيلة لغاية رسالية معينة .
- وفي حركة استيراد أعمى منظم تبررها مقولتا ؛ علمية النقد وعالميته ، حلت النظريات الحداثية بوادينا منادية بضرورة فصل الأدب عن أي معتقدات .
- في هذا السياق يقول الدكتور احمد درويش في ندوة إشكالية الناقد المعاصر والتتظير الغربي¹⁶:

على الأديب الناقد أن يتمثل الاتجاهات والنظريات النقدية الحديثة ليحيد طرحها بما يتناسب مع معطيات واقعه الثقافي خاصة بما يتعلق بخاصية اللغة ..

ثم يضرب مثلا عن المذهب الرومانسي الذي ظهر في النصف الأول من القرن العشرين عندنا ، في حين كان في أوج ازدهاره في الغرب في القرن التاسع عشر حيث كان المناخ مناسباً لتطوره هناك لاسيما غداة الحرب العالمية الأولى .

وكأننا حين نستورد مذهباً نحسب أنه فصل لنا لنكتشف بعد ممارسة وأخرى انه ليس على مقاسنا .

لذلك يعيب هذا الباحث الانفتاح العشوائي على فكر الغرب دون الانتقاء والفرز والتطويع ،والإضافة ودون النظر في قضية المواءمة ودون النظر إلى خصوصياتنا الحضارية والثقافية¹⁷

لقد تحولت هذه النظريات المستوردة منذ البنيوية إلى نظريات في ظواهر الإبداع الأدبي من منظور جمالي بحيث لم تعد نظريات في الحياة .
 فالشكلائية مثلاً أعلنت من شأن الشكل في الأدب وجعلته المحور الأساس للإشادة أو القدر بالعمل الفني بل نادت إلى علمنة الدراسة الأدبية ونادت بموت صاحب الشكل. وموته لا بد أنه موت لكل مرجعية أو هدفية .

والبنيوية كشكلائية مفرطة عدت اللغة شكلاً للتعبير، أو أدواته وهي لا تحمل أي معنى ، والمدلول عبرها مندمج في الدال ومن أجل ذلك رفضت مضمون اللغة ومن ثم مضمون الكتابة وعدته مجرد شكل¹⁸.

البنيوية رفضت كل ما سبق من مدارس نقدية، وبأسسها قوّضت الجهود السابقة ويمكن إجمال هذه الأسس في :

- 1- النزوع إلى الشكلائية
- 2- رفض التاريخ
- 3- رفض المؤلف
- 4- رفض المرجعية الاجتماعية
- 5- رفض المعنى من اللغة¹⁹

إذن سعت البنيوية إلى علمنة النقد لإنارة النص، وبديل إنارته حجبته اللغة النقدية المراوغة التي تلفت النظر إلى نفسها متذرة بعلمية التفسير للنص الأدبي ولم تحقق المعنى... فانشغلوا بألية الدلالة ونسوا ماهية الدلالة ، وانهمكوا في تحديد الأنسقة والأنظمة كيف تعمل وتجاهلوا ماذا يعني النص وتحولوا في الأخير إلى سجناء اللغة²⁰

وفضلاً عن فشلها في صيد المعنى فقد حاولت تغييب الخصوصية الفنية للنص الواحد في تميزه كيف لا والبنيوية قتل للإنسان .

الأسلوبية تتداخل مع البنيوية وتنتظر إلى الأدب نظرة لغوية وتعلي من شأن الأساليب وتدرسها علمياً ، كما ينبغي أن نشير إلى التفكيكية أو التشريحية ، وهو نبأ جديد يدعو إلى استتطاق النص والوصول إلى فرضيات وعلى عكس البنيوية تقوم التفكيكية على سلطة القراءة وتفضل سلطة الرسالة والمرسل إليه .

وهي رفض لعلمية النقد التي نادى بها البنيوية والشك في كل ما اختتم في الممارسات السابقة من أنظمة وقوانين وتقاليده وتحوّلت إلى ما لا نهاية المعنى واستبدلوا بعلمية النقد أدبية اللغة النقدية ووصلوا في آخر المطاف إلى ما وصل إليه البنيويون وهو حجب النص.

وخلاصة الأمر أن البنيوية والتفكيكية وهما أبرز النظريات الحداثيّة انطلقت من رفض مشترك للمذاهب النقدية السابقة واتجهت إلى هدف واحد أوحد هو تحقيق المعنى ، فانتهى البنيويون إلى الفشل في تحقيق المعنى ونجح التفكيكيون في تحقيق اللامعنى . لقد رفضوا كل شيء ولم يقدموا بديلاً أو بدائل مقنعة .²¹

كانت الحداثة الغربية نتيجة ثقافة الغرب. ومصطلحاتها إفراسات للفلسفة الغربية أيضاً. وعلى الرغم من ذلك لقيت رفضاً وأعداء من تربتها. فبديهي إذن أن تكون النسخة العربية من الحداثة أكثر هجوماً واستكثاراً ، لأنها ببساطة لا تمت للتراث بصلة وتقطع أوصال الإبداع بانتمائنا ومعتقداتنا فالناقد على رأي أحد الباحثين :

يحتاج دائماً إلى منهج وثيق الصلة بترائيه الإبداعي والنقدي وليس على الناقد أن يردد هذه التيارات النقدية ترديد ببعاء ، ولكن عليه أن يستوعبها ويستخلص منها ما يناسب ظرفه النقدي والإبداعي .²²

إن أغلب الدراسات النقدية تحاول العلمية، فتعتمد على الملاحظة والتصنيف والتفسير، وتنتأى بنفسها عن الانطبائية والتأمل الميتافيزيقي ، بل تسعى جاهدة لاكتساب طابع العلمية والمعرفة المؤسسة. لكنها لم تحقق الغرض المنشود للنقد :

«لأنها تستند إلى نظرة غير موضوعية لطبيعة الأثر الأدبي من جهة وطبيعة العلم من جهة أخرى ، فالمنهج اللغوي وحده يبدو عاجزاً عن إدراك مجمل دلالات الأثر الأدبي نظراً لأن حصر اهتمام الناقد أو الباحث في البناء اللغوي دون سواه يهمل البحث في رؤية العالم المضمرّة في ثنايا العمل الأدبي ويهمل أيضاً دور البحث عن الدلالات الموضوعية والذاتية وعلاقتها بالمجتمع وبالعصر .. »²³.

ولا شك - إذن - أن المنهج اللغوي الوصفي وسيلة مثلى لاكتشاف الدلالات المختلفة في بناء ومضمون الأثر ، أما التفسير فيقتضي وجود مناهج أخرى فالأدب باعتباره

نابعا من الوجدان والذات فإنه يتقرد بروح مختلفة عن غيره والمنهج تبعا لذلك لا بد أن يكون نشاطا تأمليا يسعى إلى إبراز الدلالات المختلفة في هذا الأثر عن طريق قسط من الموضوعية ، ينهض على أساس المعرفة الفنية والمعرفة العلمية فالأولى تعمل على تنمية القدرات على تذوق الجمال والثانية تعمل على تفسير هذه الدلالات ²⁴ فالذين يريدون حصر النقد في منهج لغوي بحت، يسعون إلى تحقيق العلمية للنقد ومنه العالمية .

ولكن الواقع والممارسة تثبت أن النقد ليس علما وإن كان يستعير منه بعض فتوحه . فالأثر يمتاز بالتقرد والمرونة مما جعله عصيا على العلم الخالص ومما يجعل النقد عاجزا عن التوصل إلى قوانين دقيقة .

النقد - إذن - ليس علما وبالتالي تسقط إدعاءات عالميته ، لأن العالمية صبغة العلوم الطبيعية والتجريبية ، أما مناهج النقد فهي مرتبطة بظروف تاريخية وحضارية معينة . وعليه لا يمكن تصور وجود منهج أو مناهج صالحة للتطبيق على جميع آداب الأمم المختلفة ، لأن الأعمال الأدبية لكل أمة أو حضارة مطبوعة بطابعها بل هي روحها . وتغيب المضمون والانغلاق على البنية المجردة عن كل أثر وتأثير ذر رماد على العيون ، وتغيب تعسفي لروحية الأثر الأدبي .

لقد خالصنا في مبحث سابق إلى أن صدور النقد عن منظومات منهجية مسيجة بقناعات إبديولوجيا من الممارسات البديهية ، وبناء عليه فإن الدعوة إلى منهج عربي إسلامي بديل مطلب مشروع، يحفظ للأمة توازنها وخصوصيتها ويجنبها التغريب ، وما دما أقررنا بجدوى الالتزام في الأدب والنقد فمن باب أولى أن نلتزم بالعقيدة الإسلامية ومن باب أولى أن يستصحب الناقد المسلم المفاهيم الإسلامية في نقده ، بل إن النقد الديني الأخلاقي كان مما أخذ به السلف الصالح في الأمة ، ثم إن من يدعي قصور الفكر العربي المسلم عن إنشاء نظرية إسلامية عليه أن يعود إلى جهود الباقلاني والجرجاني والزمخشري عندما درسوا الإعجاز القرآني دراسة نقدية جمالية

وسجلوا فيها سبقا منهجيا يدركه - كما ذكر ذلك الدكتور بكري عبد الكريم - كل من اطلع على المناهج الغربية . ²⁵

فالتراث والأصالة والانتماء ليست عاجزة عن التناغم مع ما يصلح من مناهج حديثة ليؤسس نظرية نقدية عربية إسلامية بديلة تحفظ للأمة وللأدب كينونتهما وتميزهما .

3 - الملامح العامة لهذه النظرية :

انتبهنا إلى ضرورة منهج نقدي بديل اصطلاحنا عليه المنهج الإسلامي .
وكنا أشرنا إلى أن اختلاف الألسنة بحد ذاته مبررا « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين »²⁶
فالأدب لا مناص ثمة القسّمات البيئية كما هو امتداد للجذور الإنسانية والمقومات الفطرية والمكونات الذاتية للكاتب . والناقد قارئ حصيف ومتتبع لهذه المحمولات ومنهج النقد ونظرية الأدب اللذان ألمعا لهما يعملان على إعادة التوازن للعلاقة القائمة بين الإنسان ووسائله الفنية في التعبير عن ذاته معتمدة الوسطية والتعادلية في النظر إلى طاقات الإنسان كلها ، فلا تغلب عقلا على عاطفة ولا شعور . ولا ذاتية على مصلحة المجتمع ، ولا تذيب الذاتية نهائيا في الكيان العام²⁷
لأنها نظرية أدركت أن طغيان عنصر على آخر جعل النظريات تتبدل وتتقسم بشكل عشوائي كالخلايا السرطانية .

وإن الناقد الذي تبنى هذه النظرية ليتعامل مع ما هو مزيج من المعتقد والفكر والسلوك والمشاعر والشكل ، مؤمنا بنظرية التجانس بين العناصر المكونة للعمل الأدبي فالكيان الإنساني كيان مركب معقد لا يمكن تفسير نشاطه بعامل واحد أو النظر إليه من زاوية واحدة²⁸.

نحتاج إذن نقدا وأدبا صادرين عن رؤية إسلامية دون تغييب لروح العصر وهذا المنهج الذي نعتناه بالبديل ينهض على دعامين على حد رأي واحد من أقطاب هذه النظرية د وليد قصاب²⁹

1- روح الأمة وخلاصة تجربتها ونظرتها إلى الكون والحياة والإنسان .

2- روح الحضارة وتلبية رغبة العصر .

هما دعامتان لا تتحققان إلا بتناغم وبتوازن مع قيم الحق والخير والجمال .

الحق في الفكر . و الخير في هدفية السلوك والجمال في المتعة والإحساس والعواطف وإنها لقيم صدح بها الدين والأدب والفن .

يجب أن لا تتسع الهوة بين ما نعتقد وما ندون ذلك أنه لا يمكن بمكان - كما يرى الدكتور بدر عبد الباسط - أن يعيش المسلم الإسلام في حياته العادية وسلوكه وعلاقاته

العائلية ثم ينفصل عنه في لحظات الصدق الوجداني ، وإذا وقع هذا فسوف يقوده إلى الانفصال³⁰.

فالتجربة الشعورية تسبق دوما التجربة التعبيرية وتكون الأساس الفكري العاطفي للنص الأدبي ، إذ كيف يدعي مدع الإسلام مثلا ويسب الذات الإلهية بدعوى توخي الفن والجمال كما لو أن الجمال لا يتحقق إلا بالنيل من المقدسات ! ولعل ما أثارته قصيدة شرفة ليلي مراد لحلمي سالم دليل على الغرس الخبيث لبعض المناهج الحداثية التي أعلت الجمال الشكلي ولا شيء غير الجمال .
إذ يقول :

ليس من حل أمامي
سوى أن أستدعي الله والأنبياء
ليشاركوني في حراسة الجثة
فقد تخونني شهوتي
أو يخذلني النقص
ثم يقول :
الرب ليس شرطيا

حتى يمسك الجناة من قفاهم
إنما هو قروي يزعط البط³¹

وتمضي القصيدة على هذا النمط العبثي المستورد من فكر يؤمن بالثنائيات الضديه هذا أو ذاك، فرد أو جماعة، عدل أو حرية، شكل أو مضمون، عكس فكرنا الإسلامي الذي هو وسطي يقر بالثنائيات المحققة بشقيها فثنائية الجمال والنفع حقيقة في نظرينا البديلة وليست هذيانا .

لأجل التصدي الممنهج لهذه الممارسات الفنية كان المنهج الإسلامي الذي يعلي من شأن ما ازدرته أو أهملته الممارسات النقدية الحداثية ألا وهي القيم الفكرية .
هذه القيم الأمامات التي تتفرع عنها كل القيم الأخرى :

1- الربانية : إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

سبيله³²

فالربانية نسبة البشر إلى الله وليس إلى وطن أو قبيلة أو ..وحين ينعكس هذا التصور على أدب أديب أو نتاج فنان فإنه يسمه بميسم التطلع إلى الأعلى و الأسمى ويعتقه من قيوده الأرضية دون أن يفصله عن الأرض وساكنيها . إنها الربانية القائمة على الحب يحبهم ويحبونه³³

مع هذا الحب سجد الأدب والفن عالمهما الرحب البعيد عن الصراع والنوازع . فالربانية التزام بنظرية الأدب يؤكد هدفية الإنسان في هذه الحياة . ثم الأخلاقية ليس في صورتها الوعظية الباهتة بل روحها التي تحركها الأفراد والجماعات³⁴.

قد يظن متابع أن هذا المنهج سيضيق الخناق على الإبداع ويفصله عن أدران المجتمع لكن الواقع أنه منهج مرن قد يصور القبح أحيانا لكن بطريقة نظيفة تنتهي إلى رفض هذا القبح والاعتبار به وعدم الإغراء به كما نلاحظ من إشاعة الفاحشة في الأدب الأوروبي . والتصدي لمروجي الإغراء كفاح تاريخي بدءا من أدب روما حين وضع أوفيد كتابه الموسوم بفن الحب فحاكمه القيصر ونفاه لأنه . حسبهم . أفسد بكتابات الشباب ثم أن فلوبيير قدم للقضاء إثر تقديمه قصة مدام بوفاري متعرضا للقبائح . وحين نظم بودليير ديوانه أزهار الشر وصفه القضاء بالتسفل وحكم عليه بغرامة³⁵. لأن الأخلاق والشرف مبادئ إنسانية والدعوى إلى كشف المخزيات والفضائح بشكل مغري لا يطمئن لها حر .

على العموم أشرنا فقط إلى الملامح العامة لهذه النظرية التي ينبغي أن تخرج شطأها وتقبلها قبولا حسنا أمام حاجتنا لإيقاف فوضى اللاقيم وانحسار مد القيم في الكتابات المعاصرة الرائجة وهي كتابات تتلخص بعضها في :

- - سوء الأدب في تصوير الألوهية كما سبق وذكرنا .
- - قلب الرموز الإسلامية وتشويه دلالاتها كقول نزار مثلا لمحبيبته :هل تصبحين شريكتي في قتل هارون الرشيد ؟
- - إشاعة الرموز النصرانية

كقول البياتي :

أقسمت يا جزائري الجديدة

أن أحمل الصليب

أن أظأ اللهب³⁶

وكتابات أخرى ضربت الأخلاق والفضيلة عرض الحائط وللروايات نصيب الأسد في هذا التجني على حياض الأخلاق وتمزيق براقع الحياء باسم الأدب المكشوف الذي يدعي أصحابه أنه لا جديد يأتي به فالواقع مكشوف ناطق عبر حروفهم التي تنتكس حسب العقاد - وتعود بهم إلى العصر الحجري حيث لا فارق بين الإنسان والحيوان³⁷

الخاتمة :

- لست ادعي في الأخير أنني جئت بالفتح المبين أو أنني قوضت أركان الحداثة بتصوري المتواضع هذا .
- لكنها في الواقع ليست إلا خطوات عجلى ينقصها الالتحام أكثر بطينة الممارسة التطبيقية لأخلص في الأخير إلى نتائج نسبية :
- علاقة الفن بالانتماء الحضاري علاقة شرعية يجب أن تصحح وتعدل بل تبعث من جديد .
 - وجود نقد إسلامي لا يعني التفريط في لذة النص ومتعته وجماله كما لا يعني تلك الأدلجة السافرة الفجة .
 - المنهج الإسلامي في النقد ليس بمعزل عن متغيرات العالم والأدب العالمي الإنساني لكنه منهج يقظ ينتقي ما يوائم خصوصيات تصوراتنا الربانية .

الهوامش:

- 1 - لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت ط1 2000 مج 14 ص364
- 2- القرآن الكريم : رواية ورش عن نافع ، سورة المائدة من الآية 48
- 3 - للتوسع ينظر لسان العرب مصدر سابق مادة نقد ص 334.
- 4 - ماوراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية ، عبد السلام المسدي مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع تونس 1994 ص 140.
- 5 - مجلة المنهل ، مصطلح مغلوط ، صلاح فضل ، العدد السنوي الخاص النقد والنقاد ، العدد 530 المجلد 57 فبراير /مارس . 1996 ، ص 17 .

- 6 - المرجع نفسه المقال نفسه ص ن .
- 7 - ينظر في نظرية النقد عبد الملك مرتاض دارهومة 2005 ص 30.
- 8 - الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون ج3 مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده القاهرة ط1 ص 131 - 132.
- 9 - مجلة المنهل - مرجع سابق - مقال النقد وبعض وظائفه عبد السلام المسدي ص4.
- 10 - المرجع نفسه ، محاور النقد الأدبي د محمد أحمد حمدون ص26.
- 11 - المرجع السابق ، المكونات المعرفية في ثقافة الناقد وفاعليتها في القراءات النقدية الاخضر جمعي ص33.
- 12 - مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي الدكتور عبد الباسط بدر دار المنارة للنشر جدة ط1 1985 ص 22.
- 13 - الملاح العامة لنظرية الادب الإسلامي ، شلتاغ عبود شراد مؤسسه الثقافة الجامعية دت د ط ص41.
- 14 - مجلة المنهل صلاح فضل مقال سابق ص 15
- 15 - الملاح العامة لنظرية الادب الإسلامي _ مرجع سابق _ ص46.
- 16 - الفن والعقيدة الدكتور عماد الدين خليل مؤسسة الرسالة دت دط ص5.
- 17 - ينظر مجلة المنهل - مرجع سابق - ص 225
- 18 - ينظر المرجع نفسه ص ن.
- 19 - في نظرية النقد . عبد المالك مرتاض ص210
- 20 - للتوسع ينظر المرجع السابق ص190 - 220
- 21 - المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية ت دعبد العزيز حمودة سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد232 ص7
- 22 - المرجع السابق ص 8
- 23 - مجلة المنهل ص 237.
- 24 - النقد العربي وأوهام رواد الحداثة د سمير سعيد حجازي ط1 2005 ص247
- 25 - ينظر مجلة المنهل ص 312
- 26 - سورة الروم آية 22
- 27 - الملاح العامة لنظرية الأدب الإسلامي - مرجع سابق - ص45
- 28 - المرجع نفسه ص 185

- 29 - كيف يتأسس مشروعنا الثقافي مقال للدكتور وليد قصاب الموقع الرسمي للدكتور 9 - 07 - 2007
<http://www.alukah.net/my/kassab/ArticleDetails.aspx?ArticleID=29>
- 30 - مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي - مرجع سابق - ص4.
- 31 - شرفة ليلي مراد كنموذج للقدارة الفكرية والأدبية مقال لعبد الحميد ضحا .موقع الألوكة .:
<http://www.alukah.net/articles/1/7491.aspx> 15 _ 8 _ 2009 م / 23 _ 8 _ 1430 هـ
- 32 - سورة الأنعام من الآية 153
- 33 - سورة المائدة من الآية 54
- 34 - الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي - مرجع سابق ص 86
- 35 - للتوسع ينظر مجلة المنهل مقال الميزان الخلقي في النقد الأدبي أ.د محمد رجب البيومي ص 93
- 36 - ينظر مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي - مرجع سابق ص 60- 63
- 37 - مجلة المنهل المقال السابق ص 95